حتى لايكون لليأس مكان في حياتنا

بقلم : مسعود فلوسي

من أصعب الأعمال على المرء أن يخوض في حديث لا يرغب في الخوض فيه، خاصة إذا كان هذا الحديث مما يثير الشجون التي تؤلم وتجرح الإحساس، كما هو الشأن بالنسبة للحديث عما نعيشه في حياتنا من مشكلات، إذ من المحزن المبكي أن يقتصر حديث المرء عن أمته في حدود الوصف المأساوي لما تعيشه في مسيرتها من صعوبات وما تواجهه من تحديات، أو أن تتوقف أبحاث وطروحات مثقفي الأمة عن حد تصوير الأزمات المتلاحقة التي تنوء بكلكلها الثقيل عليها يوما بعد آخر، في إشكال دراماتيكية مثيرة للحزن والألم وداعية إلى اليأس وفقدان الأمل وترك العمل ... ولكن ماذا يملك المرء أن يفعل أمام الصدمات المتلاحقة التي يتعرض لها الوعي الفردي والاجتماعي في العالم الإسلامي من داخل صفوفها ومن خارجها على سواء ، إلا أن يبحث عن خلفيات هذه الصدمات الماحقة وعللها الخفية، والتي من دون الوصول إلى معرفتها وبيان تأثيرها ، فإن كل وصفة تقدم للتخفيف من حدتها أو فعاليتها تبقى مجرد وصفة غارقة في السطحية، بعيدة عن تلمس الداء ووصف الدواء، وذلك ما يقتضي منا أن نقف مع ذواتنا مواقف حاسمة شجاعة تتيح لنا أن نكشف العيوب والمساوىء كما هي في حقيقتها دون تغطية أو مجاملة ، ثم ننطلق بعد ذلك في عمل جاد وطموح لإصلاح عيوبنا وتغييرها بنفوسنا .

شؤون وشجون :

إن الحقيقة الساطعة التي نعرفها ونحس بتأثيرها، والتي لايجوز لنا أن نتهرب منها أو أن نتجاهلها، هي أن أمتنا المسلمة التي شرفها الله بالوحي وبوأها مكان القيادة والشهادة على الناس، أصبحت اليوم أمة ممزقة الأوصال مبعثرة الأشلاء، لايكاد طرف منها يتصل ببقية الأطراف، وتحقق فيها تحذير رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » ، فقد تقطع العالم الإسلامي شعوبا شتى تسود بينها مشاعر العداء أكثر مما تجمعها مشاعر السلام والإخاء ، وولاء كل منها لقوة عالمية لا تعترف بالله ربا ولا بالإسلام دينا ولا بمحمد رسولا، ولم تكن لترقب في المسلمين إلاً ولا ذمة، بل إنها تمون وتشجع كل حملة لإبادتهم واستئصال وجودهم، وما يجري اليوم في البوسنة والهرسك من قتل وتعذيب للمسلمين واغتصاب لنسائهم وتشريد لأطفالهم، على مرأى من العالم ومسمع، ودون أن يرفع أحد عقيرته بالتنديد والاستنكار أو أن يتدخل لوقف المأساة، لخير دليل على الإجماع الذي أطبقت عليه أمم الأرض على إختلاف مللها ونحلها وبالرغم من المشكلات والنزاعات القائمة بينها، على القضاء

على الإسلام وإبادة المسلمين .

ومازاد الطين بلة عجز المسلمين عن تمثيل القيم التي تضمنتها رسالة الإسلام، بل أنهم لم يستطيعوا استيعابها وتفهمها، وهو ما أدى إلى إنفصام فظيع بين فكر المسلم وسلوكه، بين عقيدته وحركته في الحياة، فهو مسلم في اعتقاده ووعيه، ولكنه عمليا لا يتحرك إلا بأفكار أعدائه وأعداء دينه .

ولاغرابة بعد ذلك والحال هذه، أن تفشو الأمراض الاجتماعية المختلفة داخل المجتمع المسلم وعلى مختلف الأصعدة والمجالات، وحتى أصبحت البلاد الاسلامية مثالا صارخا للانحطاط الأخلاقي والتفكك الاجتماعي، بعد أن كانت مثالا مغريا للطهارة والسلوك ونقاء الفكر، والترابط الوثيق بين أفراد المجتمع بعضهم ببعض، وبين نظمه وقطاعاته فيما بين بعضها والبعض الآخر . ولم يعد يثير الاستنكار والاشمئزاز أن تكثر في حياتنا مظاهرالعري والفسق والفجور، وأن تتكرر أعمال النهب والسرقة، وأن تتوالى جرائم القتل والفتك، وأن تصبح الرشوة والمحسوبية وتعدي حرمات الله هي المظاهر التي تطبع المجتمع وتصيغ صورته وحياته .

ولعل من الآفات التي زادت من شلل الأمة وأقعدتها عن النهوض، آفتان خطيرتان لا تكادان تصيبان أمة إلا وقضت عليها بالدمار والزوال ولو بعد حين، إستبداد الحكام، وفسق المترفين .

فأما استبداد الحكام فأمر لايحتاج إلى دليل أو برهان، وهو الذي ساهم في تعطيل الحركة العلمية وقضى على المواهب وقمع ظهورها بكل قوة. وأما فسق المترفين فتلك أشد وأنكى، فإن لفيفا من اللصوص والجهلة وفارغي الرؤوس أتيح لهم في غفلة من أهل العلم والرأي أن يستحوذوا على خيرات العالم الإسلامي وأن يعبثوا فيها تبذيرا وإفسادا دون حسيب ولا رقيب، وأن يملؤوا بها خزائن الكفار. وأعداء المسلمين، ليستعملها هؤلاء بعد ذلك في تخريب بيوت المسلمين وهدمها على رؤوسهم وتدمير منشآتهم وإعاقة نموهم ونهوضهم .

كل ذلك إلى جانب تحديات ضخمة في الميدان العلمي والتكنولوجي ، ففي حين يبحث أعداؤنا عن مزيد من وسائل الترفيه والتيسير، لازلنا نبحث نحن عن وسائل بالية جدا نحل بها مشكلاتنا ونعمل بها على الكفاف ، والغريب أن يستعمل أعداؤنا خبرات أبناء أمتنا فيما يشتهون، وأن نحرم نحن من هذه الخبرات والمواهب، لأننا لم نستطع أن نوفر لأصحابها أدنى شروط العمل والبحث والإبداع .. لقد بلغت الحضارة الغربية المعاصرة آمادا بعيدة في الكشوف العلمية والصناعية ، أما نحن فلا زلنا لا نستطيع حتى أن نصنع آلة صغيرة تافهة مضى على تصنيعها في الغرب بضع عشرات من السنين .

وإذا كان لابد لأي مجتمع حتى يسير ويتقدم أن يكون هناك حدا أدنى من الترابط والتواصل بين أجياله، فإن آفة المجتمع المسلم الكبرى هي إنعدام هذا التواصل وانقطاع حلقاته بين أجياله، نتيجة الإستدمار الرهيب الذي تعرضت له الأمة والغزو الثقافي والفكري الشرس الذي ما انفك يكرس لتضليلها وتحييدها عن دينها وقيمها ونظام حياتها .

أرأيت إن التحديات كثيرة وضخمة، ومن شأن عدم الإستعداد لها ومواجهتها بالإيمان والصبر وقوة العزيمة، أن يتيح لها أن تقضي على معنوياتنا وتحطيم نفسياتنا، وتشل حياتنا وحركة أمتنا باليأس

وفقدان الأمل في النهوض وإستكمال المسير.

العيب فينا :

ولكن، مهلا، مابالنا نبكي ونشتكي، ولو أننا عدنا إلى أنفسنا وأعملنا عين العقل والمنطق، لتبين لنا أن سبب المشكلة كلها ينطلق منا نحن المسلمين، من نفوسنا التي عفنتها الأنانية وحب الذات، ومن واقعنا الذي شوهته التقاليد العوجاء ومسالك الرياء والبعد عن الصراط المستقيم، وإذا كان لابد من دليل على ذلك؛ فليسأل كل واحد منا نفسه: ماذا قدم أو أخر لخدمة دينه ونفع إخوانه وأمته ؟ وهل جاهد نفسه لحملها على إتباع الحق والخضوع لحكمه؟ وهل تطابق في عمله وسلوكه مع هدايات الله ورسالاته وسننه في الأنفس والأفاق ؟ وماذا قدم من عمل أو جهد في سبيل حل قضية واحدة من أبسط قضايا أمته ؟.. ليسأل كل منا نفسه ، وأنا واثق أننا جميعا ـ إلا من رحم الله ـ سنجد أنفسنا مقصرين كل التقصير في حق ديننا وأمتنا، وحتى في حق أنفسنا إذ لم نفعل شيئا من واجباتنا حتى ننجو من حسابها يوم القيامة، بل إننا كثيرا مانبرر معاصينا وسيئاتنا بأن نلصقها في ديننا وهو منها بريئ كل البراءة .

هل أجبنا نداء الله واتبعنا توجيهات رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، القاضية بضرورة الإستقامة على صراط الله المستقيم وتطبيق شرعه في حياتنا الفردية وعلاقاتنا الإجتماعية ونظامنا الثقافي والحضاري، أم أننا ذهبنا نجري وراء سراب المناهج الضالة والأفكارالوضعية السقيمة حتى إذا طبقناها في حياتنا وفرضناها على أمتنا ، عادت علينا بالويل والثبور وعظائم الأمور .

إن الله لايظلم مثقال ذرة، بل هو أكثر رحمة ورأفة بنا منا بأنفسنا ، ولو أنه حاسب أمتنا بما حاسب به الأمم السابقة حين تقترف الأثام العظيمة وتجترح السيئات والمعاصي الكبيرة، لأحرقنا بصواعق ماحقة في الدنيا ، واتبعنا عذابا أشد وأنكى في الآخرة، ولكن رحمته تعالى عزو وجل وسعت كل شئ وغلب حلمه غضبه، وغلبت شفقته ورحتمه نقمته وسخطه .

هنا يعود بنا المقام إلى حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » إنه يحدد بدقة موضع الداء الذي أوتينا منه والذي مكن أعداءنا من الإجهاز علينا ، إنه ليس قلة في الرجال أو في المال، ولكنه شئ آخر، إنه أمر يتصل بصميم الذات المسلمة والضمير المسلم، لنتابع بقية الحديثة : «قيل أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا ، بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة منكم من قلوب أعدائكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .. إن الحديث يشير إلى مسببات الوهن الحضاري وعلله العميقة : حب الدنيا الذي يعني التكالب عليها والإقبال على زينتها ومتعها وإستهلاك أشيائها ، وكراهية المو ت الذي يعني فيما يعني غياب فكرة الإحتساب وانعدام روح التضحية في سبيل الله وإيثارالباقية على الفانية، بل إن ذكر المو ت في بعض مراحل الوهن والسقوط يثيرالتشاؤم ويدعو إلى الإشمئزاز .

فالحديث يحدد منبع الإصابة : إنه نفوسنا ، وأخطر الإصابات ماكان لاحقا بنفوسنا وأرواحنا وبنائنا الداخلي الذاتي .

إن مع العسر يسرا :

حقيقة: إن القسوة مع الذات في بعض الأحيان ربما كانت خير دواء لعلاجها مما يعتريها من أسقام ويكبلها من شهوات وأهواء ، وإننا نشعرالبوم أكثر من أي وقت مضى أن تحاليل التلميح والإشارة لم تعد تجدي، وإن الصراحة في وصف العلل أصبحت مطلوبة وتقتضيها الوضعية التي ألت إليها أحوالنا وشؤوننا العامة والخاصة .

إن ما نعانيه من تعقيدا في حياتنا وتصاعد في المشكلات والتحديات التي تواجهنا، ماهي في نظرنا إلى وصفات عقابية إلهية تسدى لنا ونواجه بها حتى نراجع أنفسنا ونقلع عن معاصينا ومساوئ نفوسنا، قال تعالى : « أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا، قل هو من عند أنفسكم » [آل عمران/ 165]، وقال " «واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»، ونفس المعنى أكد عليه النبي عليه الصلاة والسلام حين سألته زوجته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : «أنهلك وفينا الصالحون ؟ »، قال : «نعم إذا كثرالخبث » [رواه مسلم] ، وذلك ماتوضحه أيضا الممارسة الإسلامية في الواقع التاريخي، فإن المصائب تزداد وتتكاثر كلما ازداد بعد الأمة عن دينها ونسيانها لهدايات ربها وشرائعه في كتابه وسنة رسوله، وتخف تلك المصائب وتأتي مكانها الإنتصارات والمسرات كلما رجعت الأمة إلى ربها وآبت إلى صراطه ومنهاجه .

إننا نعترف ـ لاريب ـ أن بعض الشدائد والمحن التي تعرضت لها الأمة خلال تاريخها كانت إبتلاءات إلهية امتحن فيها المسلمون في إيمانهم وصبرهم، وهي شدائد يعقبها اليسر والنصر حين يثبتون ولاءهم لدينهم وصبرهم في مواجهة أعدائهم، ولكننا لانوافق إطلاقا أن توصف كل المصائب التي حلت بأمتنا بأنها إمتحانات وابتلاءات، وإنما هي نتائج لأعمالنا وماقدمته أيدينا ... ولكن على كل حال، ومع ذلك، فإن أقدار الله الغالبة ورحمته الواسعة، كانت دائما تسعف المسلمين بالنصر في أحلك ساعات الهزيمة والوهن حين تَدلّهمُ عليهم الخطوب وتظلم في وجوههم الأفاق، وتبلغ قلوب المسلمين حناجرهم ويدركوا أن لامفر لهم إلا إلى الله، ولا ناصر إلا إياه، هناك يعقب العسر يسر، ويستبدل الهزيمة نصر، ولكن بتوفير الشروط وتقديم الأسباب، وإلا فـ «إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» [الرعد/11] .

فعلينا أن نبحث عن علاج أدوائنا في داخلنا الإسلامي، ولا حاجة إلى أن نبحث عنه في الخارج، فإنه مهما كانت الوصفات التي نستوردها، فإنه من المستحيل أن تحقق شيئا، ذلك مايؤكده هدي النبوة واستقراء التاريخ وقراءة الواقع .

الأزمة تلد الهمة :

إن على الذين يفلسفون الهزائم ويبحثون عن مبررات لتصنيفها كمحن وابتلاءات، ألا يستمروا في غيهم وسباتهم، وأن يعترفوا بالحقيقة عارية كماهي دون تزويق أو تنميق، وألا يواصلوا حملات التيئيس التي يشنونها على الأمة ليبثوا في وعيها إستحالة نهوضها ولحاقها بركب الأمم المتقدمة، ونحن لاندعي أن نهوضها ولحاقها بمن سبقها يمكن أن يتم بسهولة كما يفهم البعض، ولكنه يمكن على كل حال، فإن الصعوبات التي تواجهها أمتنا والعقبات التي تقف في وجه إنطلاقتها وإستكمالها لمسيرتها، ينبغي أن نواجهها بتحد مضاد حين نحول هذه الأزمات إلى

دوافع تشحذ فعالياتنا الفكرية والنفسية والإجتماعية والثقافية، ولايجوز أبدا أن نسمح لأنفسنا بأن تفقد قدراتها وتوازنها أمامها وتقع في فخ اليأس والقنوط : «ولاتيأسوا من روح الله، إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» فإن اليأس والقنوط من أعمال وصفات الكافرين وحدهم دون المؤمنين : «والذين كفروا بآيات الله ولقائه، أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم» .

إن تجميع طاقات الأمة وتوجيهها في سبيل تكوين رأي عام مسلم ينظر إلى المشكلات والشدائد بعين التحدي أضحى اليوم فريضة ملحة تتطلب العمل والإجتهاد، فإن (طريق الأمم الطبيعي عندما تمر بها أزمة أو تجتاحها محنة أن ترجع إلى قيمها تستوحي منها القوة، وتتعرف منها على مواطن الضعف، وتعود إلى قراءة تاريخها مرة بعد أخرى، قال تعالى : «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» [يوسف/111]، وإن استقراء تاريخنا الإسلامي في ساحته الواقعية يؤكد ـ وفي شكل قانون عام ـ (أن الشدائد والمحن تصنع الرجال وتبصرالأمة بأعدائها الحقيقيين، وإن اشتداد التحدي يصقل الرجال ويقيم الحضارات ويقضي على الخلايا الشائخة في الأمة وينهي دور الجيل الرخو) ... نجد ذلك في مواقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مواجهة حروب الردة ومانعي الزكاة، وفي الإنقلاب الحضاري العجيب الذي أحدثه عمر بن عبد العزيز في المجتمع الإسلامي في ظرف حرج كان يسير فيه نحو السقوط، إذ عاد به إلى ما يجب أن يكون عليه من تطابق مع قيم الوحي وهدايات السماء، كما نجده في جهود صلاح الدين ونور الدين محمود وعماد الدين زنكي والظاهر بيبرس وابن تومرت وغيرهم من القادة والعلماء عبرالتاريخ .

وفي حياتنا المعاصرة نماذج رائعة من التحدي للهجمات الشرسة التي تشن ضد أمتنا، تلك التي نجدها بارزة فيما ألقت به الصحوة الإسلامية المعاصرة من أرد ية صبغت بها كافة قطاعات المجتمع المسلم وأثرت في توجيه نظمه وعلاقاته ومظاهره الأفقية والعمودية، ومع ضراوة الحرب التي تشن في داخل العالم الإسلامي ومن خارجه على هذه الصحوة، فإنها تظل تشق مسيرتها بعزم وثبات وسط الأشواك والتحديات، ويكفيها فخرا أنها إستطاعت في سنوات قليلة أن تقضي على ما قد قضى أعداء الإسلام في سبيل تحقيقه وإنجازه قرونا عديدة، إنها قوة الحق حين تنسخ بهرج الباطل وصوره الزائفة، ورحم الله القائل :(إن شجرة الشر تهيج، ولكن شجرة الخير تثمر) ... كما نجد نماذج أخرى للتحدي في تلك الهمة العالية التي إنطلق بها نفر من علماء المسلمين ومفكريهم في مشاريع وأعمال جماعية ذات مستويات عالمية تستحق كل إعجاب وتقدير، من حيث الدقة والتنظيم والمثابرة والإبداع والجهد الدائب للنهوض بالأمة وتعريفها بحقيقتها وإشعارها برسالتها الحضارية العظمية، كل ذلك يبشر بمستقبل مشرق، ويبعث على الأمل في غد أفضل فيه الحق، وتستظل فيه الأرض بظل شريعة السماء .

إلى الأمل والعمل :

إن أمة الشهادة والقيادة لايجوز لها أن تيأس أو تستكين، فإن عليها أن تؤدي وظيفتها في قيادة الأمم وتبليغ رسالة الله إليها، ومهما واجهها من

عقبات وتحديات، فإنها لن تستطيع إعاقتها والقضاء عليها إذا ماتوقف أبناء هذه الأمة على ألا يدعوا لليأس موضعا من حياتهم، وأن يحاربوا عوامل القنوط والوهن في نفوسهم وواقعهم ... وفي سبيل ذلك، ينبغي - ونحن نعمل للنهوض بأمتنا - أن ندرس واقعنا دراسة فاحصة وناقدة تتيح لنا معرفة الأسباب العميقة للإصابات التي لحقت بكياننا بكل صراحة وشجاعة وجرأة، دون السقوط في فخ التنكر للخطأ والتغطية عليه، أو الوقوع في شباك النرجسية وعبادة الكيان الذاتي، تلك التي تعمي البصيرة وتقعد بنا عن إبصار عيوبنا وإصلاح نفوسنا، وذلك مايدعو أيضا إلى ضرورة معرفتنا بنفوسنا، وبالوحي الذي شرفنا الله بحمله وتبليغه من دون الأمم والشعوب، وفيه وحده صلاحنا ونجاحنا وقوتنا، ومنه نستمد سلاحنا في مواجهة أعدائنا الذين لايمكنهم أن يصيبوا أو يؤثروا فينا مابقينا مستمسكين به عاضين عليه بالنواجذ .

إن الاستسلام لليأس والقنوط سوف لن يجدينا شيئا بقدر ماسيزيد في ضعفنا وقوة أعدائنا، لذلك لابد من محاربته في حياتنا وأن لا ندع ميدانا منها إلا وهزمناه فيه هزيمة ساحقة ... إن علينا أن نتعلم أداء واجباتنا قبل المطالبة بمالنا من حقوق، فما أضر بنا وجرأ أعداءنا علينا إلا تضخم ذواتنا وتقاعسنا عن أداء واجباتنا تجاه ديننا وأمتنا، ثم مغالاتنا في المطالبة بالحقوق التي ندفع ثمنها ولم نجتهد في سبيل تحصيلها .

ولنردد مع الشاعر المسلم الذي يتحرق ألما لمصاب أمته الدكتور يوسف القرضاوي - حفظه الله - وهو يقول في إحدى أروع قصائده:

يا أمتي صبرا قليلك كاد يسفر عن صباح
لابد للكابوس أن ينزاح عنا أو يزاح
والليل إن تشتد ظلمته نقول : الفجر لاح
والفجر إن يبزغ فلا نوم وحي على الفلاح

إن صوت الحق والواجب يناديناويخاطب فينا نخوة الإسلام وحق العبودية الحقيقية لله عزوجل ، فهل نقوم لنبني حضارة الأمل والعمل، أمل في أن تصلح حال الإنسان وأن يؤوب إلى ربه، وعمل في تبليغه رسالات الله وهداياته، أم أننا سنترك كل ذلك لنقعد ونستكين ؟ ... إنه بلا أمل ومن دون عمل، لن تقوم لنا حضارة ولن تستقيم لنا حياة .